جامعة الملك فيصل

عمادة التعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد

اسم المقرر

الأخلاق الإسلامية وآداب المهنة

أستاذ المقرر

أ.د/ عبد الله الديرشوي

إعداد وتنسيق/ Bandar902 (أبو نواف)

1436-2015هـ

المحاضرة الأولى // تعريف عام بالخُلُق ومكانته في الإسلام

أولاً: تعريف الخُلُق:

الخُلُق لغة: بضم الخاء واللام، الطبع والسجية والمروءة. وجمعه أخلاقٌ.

- ✓ **وسميت خُلُقاً لأنها تصير كالخِلْقة في صاحبها فلا تكاد تنفك عنه.**
- وهو يمثل صورة الإنسان الباطنة، والجانب المعنوي في شخصيته. أي؛ نفسه التي بين جنبيه وأوصافها ومعانيها المختصَّة بها. وأما الخَلْق –بفتح الخاء- فيمثل صورته الظاهرة، والجانب المادي في شخصيته، وأوصافها ومعانيها.
- يقول الراغب رحمه الله: "الخَلْق والخُلُق في الأصل واحدٌ ... لكن خُصّ الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخُلُق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة".
- ويقول الإمام الغزالي رحمه الله: "الخَلْق والخُلُق عبارتان مستعملتان معاً، يقال: فلانٌ حسنُ الخُلُق والخَلْق. أي: حسن الباطن والظاهر. فيراد بالخَلْق الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلُق الصورة الباطنة. وذلك لأن الإنسان مركبٌ من جسدٍ مدرك بالبصر، ومن روحٍ ونفسٍ مدركٍ بالبصيرة. ولكل واحد منهما هيئةٌ وصورةٌ: إما قبيحةٌ، وإما جميلةٌ. فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر.

والخُلُق اصطلاحاً: "حالٌ للنفس راسخةٌ تصدر عنها الأفعال من خيرٍ أو شرٍ بسهولةٍ ويسرٍ من غير حاجةٍ إلى فِكْرٍ و رَوِيَّةٍ".

- **ومعنى: (حالٌ):** أي هيئةٌ أو صفةٌ للنفس الإنسانية. وبهذا الاعتبار يقال: فلانٌ خُلُقه حميدٌ.
- **و(راسخةٌ):** أي؛ ثابتة بعمق. وهو ما يعني أن الأفعال تتكرر من صاحبها على نسقٍ واحدٍ حتى تصبح عادةً مستقرةً لديه. ومن ثمَّ كان مَنْ يُنفق المال مرةً أو مرتين أو ثلاثٍ على المحتاجين لا يوصف بخُلُق السخاء والجود، بل لابد من تكرره منه مراراً بحيث يُصبح عادةً له.
- **و(من غير حاجةٍ إلى فِكرٍ ورَوِيَّةٍ):** أي من غير تَكَلُّفٍ، أو مجاهدةِ نفس، أو قيامٍ بمحاكمات عقلية، بل تصدر بسهولة ويسر، وبطريقة تلقائية.
- ✓ **وعلى هذا المعنى يُحمل قول الله سبحانه في مدح نبيه محمد ﷺ: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} (القلم: 4).**
- ولكن قد يُطلَق الخُلُق مجازاً على نَفْسِ المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني فنقول: العِفَّة خُلُق، والصِّدق خُلُق، والحياء خُلُق، بقطع النظر عن الفاعل، وعلى هذا المعنى يُحمل قول الرسول ﷺ: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق). أي لأتمم صالح القواعد المنظمة لسلوك الإنسان.
- وقد يُطلق أيضاً -من باب المجاز- على الفعل الصادر من خُلُق الإنسان، كالشجاعة الصدرة منه أو السخاء الصادر منه. يقول الراغب: "جُعل الخُلُق مرةً للهيئة -الصفة- الموجودة في النفس التي يصدر عنها الفعل بلا فكر، وجُعل مرة اسماً للفعل الصادر عنه باسمه، وعلى ذلك أسماء أنواعها نحو العفة والعدالة والشجاعة، فإن ذلك يقال: للهيئة والفعل جميعاً".

ثانياً- موضوع علم الأخلاق:

ذكرنا أن الخُلُق يستقر في النفس الإنسانية، إلا أنه ليس الوحيد الذي يستقر فيها، فهناك إلى جانبه أيضاً الغرائز والدوافع كالحاجة إلى الطعام والنكاح، وكحب الولد والمال، وقد يلتبسان ببعضهما فلا يميز كثيرٌ من الناس بين ما هو من قبيل الخُلُق وما هو من قبيل الغرائز والدوافع، ومن ثَمَّ حَسُنَ التمييز بينهما، ولعل أهمَّ ما يُميزهما عن بعضهما، أن الغرائز والدوافع لا توصف بالخير أو الشر، ولا تستوجب لصاحبها مدحاً ولا ذماً، كما لا يترتب على إشباعها ثوابٌ أو عقابٌ، بخلاف الخُلُق فإنه يتعلق بالأعمال التي توصف بالخير أو الشر، وبالحسن أو القبح، ويستوجب لصاحبه مدحاً أو ذماً، ويُعرضه للثواب أو العقاب.

- فإنْ حَصل ومُدِحَ الإنسانُ أو ذُمَّ على تعاطيه مع بعض تلك الغرائز أو الدوافع، لم يكن المقصودُ نفسَ الفعل، وإنما طريقة تلبية تلك الحاجة، أو إشباع تلك الرغبة. فمَنْ يأكل لدفع الجوع عن نفسه لا يُمدح ولا يُذم على نفس فعل الأكل (لأنه يُشبع حاجة فطرية)، وإنما يُمدح أو يُذمُّ على طريقته في الأكل. فإن أكل مما يليه، وبهدوءٍ، وبدأ باسم الله، وانتهى بحمد الله، حُمِد على فعله هذا. وإن أكل بشراهةٍ ... ذُمَّ على فعله. وهكذا يُقال في بقية الغرائز.

ثالثاً- أقسام الخُلُق:

يمكن تقسيم الخُلُق باعتبار منزلته في الشرع، إلى: خُلُق محمود؛ ينتج عنه أقوالٌ وأفعالٌ **جميلةٌ** عقلاً وشرعاً. **وخُلُق مذموم؛** ينتج عنه أقوالٌ وأفعالٌ **قبيحةٌ** عقلاً شرعاً.

كما يمكن تقسيم الخُلُق باعتبار دور الإنسان فيه إلى:

- ✓ **أخلاق فطرية،** لا دور للإنسان في اكتسابها، بل هي هبةٌ من الله تعالى، جَبَلَه عليها. كحال الأنبياء عليهم السلام الذين اصطفاهم الله، وجعلهم القدوة الصالحة خُلُقاً وسلوكاً وأدباً.
- وهناك مِن غير الأنبياء أيضاً مَنْ يمُنُّ اللهُ عليه ببعض الصفات الخُلقية الحميدة، كما في حديث أشج عبد القيس حيث قال له النبي ﷺ : (إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ). قال يا رَسُولَ اللَّهِ: أنا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا، أَمْ اللهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قال: (بَلْ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا) قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي جَبَلَنِي على خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله وَرَسُولُهُ". وعبد القيس قبيلة، والأشج رئيسها، واسمه المنذر بن عائذ. والحِلم: العقل. والأناة: التثبتُ وتركُ العجلة.
- ✓ **أخلاق مكتسبة،** يكتسبها الإنسان بالتدريب والممارسة، يقول ﷺ: (إنما العلم بالتعلم)، ويقول: (وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله). البداية من العبد، ثم يأتيه التوفيق من الله.

رابعاً: أمهات الأخلاق:

حوى القرآن الكريم والسنة المطهرة على أمهات الأخلاق والفضائل جميعها في نصوصٍ جامعةٍ موجزة، نشير فيما يأتي إلى نماذج منها.

- من هذه الآيات الجامعة للبر والفضل ومكارم الأخلاق قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ والبغي يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (النحل:90). قال ابن مسعود ﷺ: "ما في القرآن أجمعُ لخيرٍ ولا لشرٍ من آية في سورة النحل {إن الله يأمر بالعدل}، وقال الحسن البصري رحمه الله: "لم تترك هذه الآية خيراً إلا أمرت به، ولا شراً إلا نهت عنه".
- ومنها قوله تعالى: {وتَعَاوَنُوا على البِرِّ والتَّقْوى، وَلا تَعَاوَنُوا على الإِثْمِ والعُدوَانِ} (المائدة:2). والبر اسمٌ جامعٌ لكل طاعةٍ وخيرٍ، والإثم اسمٌ جامع لكل معصية وشر. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "يتعاونون على الصدق والعدل والاحسان، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ونصر المظلوم، وكل ما يحبه الله ورسوله، ولا يتعاونون لا على ظلمٍ، ولا عصبيةٍ جاهليةٍ، ولا اتباع الهوى، بدون هدىً من الله".
- ومن الأحاديث النبوية الجامعة لأمهات الأخلاق قوله ﷺ: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فإن الظَّنَّ أَكْذَبُ الحديث، ولا تَحَسَّسُوا ولا تَجَسَّسُوا ولا تَنَافَسُوا ولا تَحَاسَدُوا ولا تَبَاغَضُوا ولا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَاناً). وقوله ﷺ: (ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ من مَالٍ، وما زَادَ الله عَبْداً بِعَفْوٍ إلا عِزًّا، وما تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إلا رَفَعَهُ الله).

☒ **وقد أرجع كثيرٌ من العلماء أمهاتِ الأخلاقِ وأصولها إلى أربعةٍ هي:**

الحكمةُ والشَّجاعةُ والعِفَّةُ والعدلُ، وقالوا: إن ما سواها يندرج فيها، وهي بمثابة فروعٍ لها.

- ✓ **ويعنون بالحكمة:** حالاً للنَّفسِ بها يُدْرِكُ الصَّوابُ من الخطأ.

- ✓ **وبالعدل:** حَالاً للنَّفس وقوةً بها تسوس الغضب والشهوة، وتحملهما على مقتضى الحكمة، وتضبطهما في الاسترسال والانقباضِ على حسب مقتضاها.
- ✓ **وبالشَّجاعة:** كونَ قوَّةِ الغضَبِ مُنقادَةً للعقل في إقدامها وإحجامها.
- ✓ **وبالعفَّة:** تأدّبَ قوَّة الشَّهوة بتأديب العقل والشَّرع.

- فيندرج مثلاً في **خُلُق الحكمة "**حسن التدبير، وجودة الذهن، وثقابة الرأي، وإصابة الظن، والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس، وينتج عن إفراطها –زيادتها عن الحد الوسط- المكر والخداع والدهاء، ومن تفريطها البله والحمق**"**.
- ويندرج في **خُلُق الشجاعة "**الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد، وينتج عن إفراطها –زيادتها- التهور والصلف والتكبر والعجب، وعن تفريطها -التقصير فيها- المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس**"**.
- ويندرج في **خُلُق العِفة "**السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع، وينتج عن ميلها إلى الإفراط أو التفريط الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والعبث والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء**"**.

خامساً: مكانة الأخلاق في الإسلام:

تمثل الأخلاق جوهر رسالة الإسلام، ونصوص الشرع في الأمر بالفضائل والنهي عن الرذائل تصل بها إلى أعلى درجات الإلزام، وترتب عليها أعظم الجزاء في الدنيا والآخرة. يقول الرسول ﷺ: (الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة. والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار)، ويقول: (دخلت امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها، ولا هي دعتها تأكل من خشاش الأرض). وبلغ من عناية الإسلام بالأخلاق أن الله سبحانه حين أثنى على نبيه محمد ﷺ في القرآن الكريم، اختار الثناء عليه من جهة أخلاقه.

بل إن الله سبحانه أخبر بأن الغاية من بعثة نبيه ﷺ أخلاقية، وذلك بتزكية نفوس المؤمنين وتطهيرها، فقال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} (الجمعة: 2)، وكذلك أخبر الرسول ﷺ بأن الغاية والهدف من رسالته إتمام البناء الأخلاقي الذي بدأه من سبقه من الأنبياء والمرسلين، فقال: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)، فهو ﷺ المتممُ والمكمل لرسالات من سبقوه من الأنبياء عليهم السلام، وما بُعثوا به من القيم والفضائل.

مكانة الأخلاق بين علوم الشرع:

تمثل الأخلاق إحدى الشعب الأربع لعلوم الشرع **(عقائد، وعبادات، ومعاملات، وأخلاق).** وربما قسمها بعضهم إلى ثلاث شعب فدمجوا بين العبادات والمعاملات تحت اسم الشريعة، فقالوا: **(عقيدة، وشريعة، وأخلاق).**

وهذا التقسيم إنما يصح بالنظر إلى الجهة الغالبة في كل شعبة، وإلا فإنها لا تنفك عن بعضها، بل هي متداخلة متعاضدة كالبنيان يشد بعضها بعضاً.

- ففي **مجال العقائد** نجد أن الإسلام يربط بين الإيمان والأخلاق ربطاً محكماً، فيجعل حُسْن الخُلق علامة كمال الإيمان، فيقول ﷺ: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً)، ويعتبر التوحيد –الذي هو أساس الإيمان- من باب "العدل" المصنف في الفضائل الخُلُقية، كما يعتبر الشرك من باب "الظلم"، المصنف في الرذائل الخُلُقية، فيقول سبحانه على لسان لقمان: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} (لقمان:13)، لأنه وضعٌ للعبادة في غير موضعها!
  - بل إن القرآن الكريم اعتبر الكفر بكل أنواعه ظلماً، فقال تعالى: {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (البقرة:254).
- وفي **مجال العبادات**، نجد أن أمهاتها ذات أهداف أخلاقية جليةٍ، نصَّ عليها القرآن بوضوحٍ.

- قال تعالى في شأن الصلاة وهي الأهم من بين العبادات: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ} (العنكبوت: 45). أي أن الصلاة تعين على الخُلُق القويم، وتسهم في تربية الضمير على الابتعاد عن الرذائل، كما أنها تعين المسلم على التحلي بالصبر في مواجهة متاعب الحياة. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}(البقرة: 153).
- وفي **شأن الزكاة** قال تعالى:{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} (التوبة:103)، فجعل الغاية منها تطهير النفس وتزكيتها، وهما الأساس في الأخلاق.
- وفي **شأن الصوم** قال تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (البقرة: 183)، فجعل الغاية منه إدخال صاحبه في سلك المتقين.
- وفي **شأن الحج** قال تعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ} (البقرة: 197). فجعل الغاية منه تدريب المسلم على ضبط جوارحه. وفي مجال المال والاقتصاد كان للأخلاق حضورها، سواءٌ في ميدان الإنتاج، أو المبادلة، أو التوزيع، أو الاستهلاك.
- ففي **مجال الإنتاج** أوجب الإسلام أن تكون السلعة المنتجة نافعة مفيدة، وأما ما كان ضاراً بالناس أو مؤذياً لهم فلا يجوز إنتاجه. قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا} (البقرة: 219)، وقال رسول اللهِ ﷺ (لَعَنَ الله الْخَمْرَ وَشَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا وَبَائِعَهَا وَمُبْتَاعَهَا وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إليه). فبين أنه يحرم إنتاجه على الرغم من منافعه المادية وذلك لضرره، ومثله الميسر وكُلُّ مُحَرَّم.
- وفي **مجال التبادل** يحرم الإسلام الاحتكار والغش وكتمان العيب، وإنفاق السلعة بالحلْف، واستغلال حاجة الآخرين، ففي الحديث: (لا يحتكر إلا خاطئ) أي آثم. وفيه أيضاً: (مَنْ غشنا، فليس مِنَّا)، وفيه: (الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْبَرَكَةِ).
- وفي مجال الملكية، يمنع الإسلام من تملك ثروةٍ بطريق غير مشروع، أو أخذ ما ليس بحق.
- وفى **مجال التوزيع** يأمر الإسلام بالعدل بين الأولاد في العطية. يقول ﷺ: (اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بين أَوْلَادِكُمْ)، كما يضع الإسلام نظاماً دقيقاً في توزيع الميراث، والصدقات المفروضة، والغنائم.
- وفي **مجال الاستهلاك** والإنفاق يأمر بالاعتدال والتوسط، والابتعاد عن الترف، والتبذير والإسراف والتقتير. قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا} (الإسراء:29)، وقال أيضاً: {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} (الأعراف:31).
- وفي **مجال السياسة**، نجد أن الإسلام قد ربط السياسة بالأخلاق، فرفض كل الأساليب الدنيئة للوصول إلى الغايات، مهما كانت تلك الغايات نبيلة. ورفض مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة". وبنى سياسته على الصدق والرحمة والعدل والإنصاف والمساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات والعقوبات، وفرض احترام الاتفاقات، والوفاء بالعهود. قال تعالى: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ من قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِم على سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الخائنينَ} (الأنفال:58)، وقال جل شأنه: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُواْ}(الأنعام:152).
- وفي **مجال الحرب** لم تنفصل سياسة الإسلام عن الأخلاق، بل بقيت كما في السِّلْم مبنية على العدل والرحمة والصدق والوفاء. قال تعالى: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} (البقرة: 190)، وجعل الإسلام الغاية من الحرب إعلاء كلمة الله، والانتصار للحق والخير.

(اختبر نفسك)

❖ اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(1) الذي خُصّ بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر هو:

(أ) الخَلق (بفتح الخاء) (ب) الخُلُق (بضم الخاء واللام)

(ج) الغرائز (د) جميعها صحيح

(2) قد يُطلَق الخُلُق على نَفْسِ المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني وبهذا المعنى ورد :

(أ) قوله تعالى: {وإنك لعلى خلق عظيم} (ب) قول النبي (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)

(ج) كلاهما خطأ (د) كلا هما صحيح

... انتهت المحاضرة الأولى ...

المحاضرة الثانية // أسس النظام الأخلاقي في الإسلام

☒ **تقوم الأخلاق الإسلامية على دعائم وأسسٍ ثلاثةٍ هي:**

1- الأساس الاعتقادي 2- الأساس الواقعي 3- الأساس العلمي.

أولاً - الأساس الاعتقادي: ويُقصد به أن نظام الأخلاق في الإسلام مشيد على أسس من عقيدته المتمثلة في أركان الإيمان، **وخصوصاً الثلاثة الآتية:**

الأول: الإيمان بوجود الله تعالى، وبأنه وحده الخالق للكون وللبَشَر، وخالق الموت والحياة، وبأنه وحده المتصرف فيهم {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} (الأعراف: 54)، وبأنه تعالى قد أحاط بكل شيءٍ علماً، وبأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} (ق:16).

الثاني: الإيمان برسالات الأنبياء والرسل، وبأن الله لم يترك الناس منذ أن خلقهم سُدى، بل هداهم لمعرفته، وعرَّفهم بطريق الخير والشر، وأمرهم باتباع شرائعه، وحذرهم من مخالفة أوامره، وأخبرهم أن من أطاعه فله الرضا والجنة، ومن عصاه فله السخط والنار. قال تعالى: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدىً فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا أولئك أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (البقرة:38-39). وقال سبحانه: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} (الشمس: 8)، ثم الإيمان بأن الشريعة التي أُرسل بها محمد ﷺ هي خاتمة الشرائع، {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (آل عمران:85)، وقال تعالى: {قُلْ يا أَيُّهَا الناس إني رسول اللَّهِ إِلَيْكُمْ جميعاً} (الأعراف: 158). والله سبحانه وهب الإنسان العقل وأنشأه على الفطرة السليمة، وأوجد فيه القوة والقدرة على إدراك الحق والباطل، ومعرفة الخير والشر، ومن ثَمَّ جاء تكليفه باتباع الحق والخير، واجتناب الشر والباطل، وإدراك ما عليه من واجبات أو محرمات.

الثالث: الإيمان بالحياة الأخرى، وأنها إما نعيم، وإما جحيم. فالنعيم لمن اتبع الحق، وفعل الخير. والجحيم لمن اتبع الباطل، وارتكب ما حرم الله. وكلاهما لا يكون إلا بعد حساب دقيق بين يدي الخالق عز وجل يوم القيامة. قال تعالى:{إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} (يس:12). وقال جل جلاله: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} (الأنبياء:47).

- ✓ **أهمية الأساس الاعتقادي:** هذا الأساس الاعتقادي بهذا المفهوم -المنبثق من الإيمان بالله وبرسالاته واليوم الآخر والحساب- في غاية الأهمية، بل هو عماد النظام الأخلاقي الإسلامي. ومن غير هذا الأساس تفقد الأخلاق قدسيتها، وتتحول إلى مواعظ أو نصائح مجردةٍ يمكن أن تصدر عن أي إنسانٍ.
- ▪ إن ما يدفع المسلم إلى الالتزام بأخلاق دينه وتطبيقها في السر والعلن، إيمانه بأنها من الله، وأنه سبحانه رقيب عليه، وسيحاسبه عليها، وأن اتصافه بالخُلُق الحميد يعني رضا الله والجنة، واتصافه بخلاف ذلك يعني السخط والنار.

ثم بقدر تمكن هذا الأساس من قلب المؤمن، يكون الامتثال والتحلي بالفضائل والقيم.

- ▪ يقول الدكتور ألكسيس كاريل: "الفكرة المجردة لا تصبح عاملاً فعالاً إلا إذا تضمنت عنصراً دينياً، وهذا هو السبب في أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية إلى حد تستحيل معه المقارنة، ولذلك لا يتحمس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق، إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية".
- ▪ وأمرٌ آخر يؤكد أهمية هذا الأساس الاعتقادي وهو أن في طبيعة الحياة الإنسانية جانباً لا يملؤه إلا الإيمان؛ فمن انعدم لديه الإيمان عانى من الفراغ في هذا الجانب، وأحَسَّ بالقلق والاضطراب، كما هو حال الوجوديين

وأمثالهم من الملاحدة ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، حيث نجد القلق والحيرة قد استبدت بأعماق نفوسهم، ولربما أدى ذلك بهم إلى الانتحار، بخلاف المؤمن الذي يكون في طمأنينة ورضا مهما واجهته المصائب والتحديات، وبقدر زيادة إيمانه وتمكنه من قلبه، يكون شعوره بالرضا أعظم، وتسليمه بقضاء الله أتم.

- إن أولئك الوجوديين وأمثالهم -من الملاحدة- لا يعانون فقراً أو حرماناً في الغالب! وإنما يعانون من فقدان الطمأنينة التي يجلبها الإيمان القويم، وهذا أمرٌ مشاهدٌ ومحسوسٌ، يُقر به جمع كبيرٌ من علماء ومفكري الغرب.

<u>ثانياً - الأساس الواقعي:</u> أقام الإسلام نظامه الأخلاقي على أساس واقعي، وذلك من خلال مراعاة طبيعة الإنسان من جهة، ومراعاة واقع الطبيعة والكون من حوله من جهة أخرى.

فأما مراعاته لطبيعة الإنسان فقد تجلت في نظرته له على أنه مكونٌ من روحٍ وجسدٍ وعقلٍ وشهوةٍ ومشاعرَ وعواطفَ وعلى أن هناك صراعاً بين طبيعته وتكوينه المادي الذي يميل إلى الأرض، فينساق للأهواء والشهوات من جهة، وروحه العلوية التي هي من نفخ الإله، وتدعوه إلى السمو والرقي والمثالية من جهة أخرى.

وقد وضع الإسلام نظاماً دقيقاً للتنسيق بين هاتين الطبيعتين فيه، ووجهه إلى السلوك الذي يليق به بصفته المخلوق الذي كرمه الله، وبصفته الكائن الأشرف على ظهر الأرض، ومن أتباع خاتم الأنبياء والرسل عليهم وعلى نبينا أزكى الصلاة والتسليم.

وأما مراعاة الإسلام للطبيعة فقد تجلت في نظرته الوسطية والواقعية إلى ما يجب أن تكون عليه علاقة الإنسان بها.

☒ **وقد جاءت نظرته وسطاً بين نظرتين متطرفتين هما:**

✓ **دعوات روحية** تدعو الإنسان إلى مجابهة الطبيعة والاستعلاء عليها، مهما كانت الضغوطات التي تواجهه في الحياة. وقد تجلت هذه الدعوات في فلسفات وأديان انتشرت في بلدان المشرق (كالهند والصين وفارس). وكانت تعتقد بأن الإنسان بقدر ما يستعلي على الطبيعة، ويتنكر لمتطلباتها، سيحقق لنفسه السعادة المنشودة، والسمو الروحي الذي يطمح إليه.

✓ **دعوات مادية (للطبيعيين)** تدعو للاستسلام للطبيعة، والانسياق وراءها، والاستجابة لمتطلباتها. وقد تجلت هذه الدعوات في فلسفات انتشرت في بلدان الغرب (الإغريق والرومان قديماً، وأوربا حديثاً وارثة فلسفتهم وحضارتهم)، وتقوم معظمها على إنكار الحياة الآخرة وعلى أنه لا بعث بعد الموت، وعلى أن هذه الحياة هي فرصة الإنسان، ولا ينبغي له أن يفوت على نفسه شيئاً من مُتَعِها!.

☒ **فجاء موقف الإسلام وسطاً بين هاتين النظرتين، وتجلى ذلك في:**

✓ **دعوته للإنسان أن يضبط ميوله ورغباته ويوجهها وفقاً للمُثُل والقِيَم والأحكام التي جاء بها الإسلام.** قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى* وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ....} (النازعات:37-41)، وأن يكون سيداً على الطبيعة، فيسخر مواردها في عمران الأرض، ونفع العباد. قال تعالى: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} {هود:61}. أي طلب منكم عمارتها.

✓ **دعوته إلى التأقلم والانسجام مع الطبيعة ومع الواقع الذي يعيشه، فلا يتصادم معه.** قال تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ} (الأعراف: 32)، ويسمى هذا استفهاماً إنكارياً. وفي معنى الآية أيضاً قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} (البقرة:172).

❖ إذاً هذا هو موقف الإسلام من الطبيعة، موقفٌ وسطٌ لا ينساق مع الشهوات والأهواء من غير ضوابط ولا قيود، وكذلك لا يتنكر لمتطلبات الجسد وغرائزه ورغباته، بل يلبيها ضمن حدود النفع الذي يعود عليه وعلى المجتمع من حوله.

ثالثاً - الأساس العلمي: أقام الإسلام نظامه الأخلاقي على أسس علمية تتمثل في القوانين الأساسية للحياة البشرية، وهي: **(قانون المحافظة على الحياة، وقانون تكاثر النوع الإنساني، وقانون الارتقاء العقلي والروحي) .**

☒ **وفيما يلي بيانٌ لكل واحدٍ من هذه القوانين.**

القانون الأول: قانون المحافظة على الحياة: ويُقصد به أن الإسلام اعتبر كلَّ سلوكٍ من شأنه أن يحافظ على الحياة وينميها، سلوكاً أخلاقياً مشروعاً ومطلوباً. كما أنه اعتبر كل سلوكٍ يضاد الحياة أو يعوقها بصورة من الصور، سلوكاً غير أخلاقيٍ ومرفوضاً ومحرماً.

ومن ثَمَّ فقد أمر أتباعه بتعاطي كل أسباب الحياة، من أكل وشرب ونوم وراحة ومركبٍ وسكنى.

كما أمرهم بالابتعاد عن كل ما يمكن أن يُلحق بهم الأذى والضرر، فحرم القتل، وتهديد الآخرين وإخافتهم، والتحاسد والتباغض والتدابر. قال تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} **(البقرة: 195)**، وَقَوْلِهِ: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} (النساء: 29)، وقال ﷺ: (المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ ولا يَحْقِرُهُ ... بِحَسْبِ امْرِئٍ من الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ كُلُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ).

القانون الثاني: تكاثر النوع الإنساني: ويُقصد به أن الإسلام اعتبر كل سلوك من شأنه أن يؤدي إلى إبقاء النوع الإنساني وتكثيره سلوكاً أخلاقياً راقياً ومطلوباً، ومن ثمَّ فقد شرع الزواج، وحث عليه، ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا، فإني أصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)، كما حث ﷺ على حسن اختيار الزوجة، فقال: (تخيروا لنطفكم، وانكحوا الأكفاء، وأنكحوا إليهم)، وحث الآباء على تزويج بناتهم من أناس صالحين، ذوي دين وخلق فقال ﷺ: (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلاَّ تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفساد).

كما أن الإسلام - من جهة أخرى- منع كل سلوكٍ من شأنه أن يحدَّ أو يعوق استمرار التناسل، كالتبتل والرهبانية والخِصاء، لتصادمه مع بقاء النوع الإنساني وتكاثره. ففي حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: **"كنا نغزو مع النبي ﷺ ليس لنا نساء، فقلنا: يا رسول الله، ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك"**.

القانون الثالث: الارتقاء العقلي والروحي: ويُقصد به أن الإسلام اعتبر كل سلوكٍ من شأنه أن يؤدي إلى السعادة والإقبال على الحياة بمحبة وانشراح، أو كل سلوكٍ من شأنه أن ينمي العقل، ويحافظ عليه، سلوكاً أخلاقياً راقياً.

كما أنه اعتبر كل سلوكٍ يُضاد الحياة السعيدة بأن يجعل الإنسان يعيش في عزلة من الناس أو متشائماً أو قلقاً أو يُضاد العقل بأن يجعله مستسلماً للجهل والخرافات، سلوكاً غير أخلاقي.

ومن ثَمَّ حَثَّ الإسلامُ على العلم وصِلة الرَّحِم، ومحبة الآخرين، والرضا بقضاء الله وقدره. فقال ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) ، وقال أيضاً: (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراءٌ شَكَر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراءٌ صَبَر فكان خيراً له). فالمسلم يتلقى المصائب بنفسٍ راضية بقضاء الله، وتسليمٍ لأمره، ويعتقد أن قضاء الله خير، وأن الحكمة فيه وإنْ خفي عليه.

كما حرم الإسلام تعاطي المسكرات والمخدرات، وما من شأنه أن يَضُرَّ ببدن الإنسان أو عقله، فقال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} (المائدة:90-91).

(اختبر نفسك)

❖ اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(1) تقوم الدعوات المادية على :

(أ) الاستسلام للطبيعة (ب) الإيمان بالله

(ج) السمو الروحي (د) جميعها صحيح

(2) يعني قانون الارتقاء العقلي والروحي أن الإسلام اعتبر من السلوك الأخلاقي الراقي كل سلوكٍ من شأنه أن:

(أ) يؤدي إلى الإقبال على الحياة بمحبة وانشراح (ب) يحافظ على العقل

(ج) ينمي العقل (د) جميعها صحيح

... انتهت المحاضرة الثانية ...

المحاضرة الثالثة // خصائص الأخلاق الإسلامية

☒ **تميز النظام الأخلاقي في الإسلام عن غيره من الأنظمة الأخلاقية الوضعية أوالسماوية المحرَّفة بجملة من الخصائص، أهمها:**

أولاً- أنها أخلاقٌ ربانية: فهي ليست أخلاقاً نابعةً من تأملاتٍ فلسفيةٍ، أو اعتباراتٍ نفعيةٍ، أو تجارب تربوية، وإنما هي في أصولها وفروعها مستمدة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. فما من خُلُقٍ حميد إلا ونجد الحثَّ عليه في الكتاب والسنة، وما من خلق ذميمٍ إلا ونجد التحذير منه.

من ذلك إضافة إلى ما سبق في مواضع متعددة:

قوله تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ...} (البقرة: 176- 177).

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا} (الحجرات: 11- 12)

وقول النبي ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»).

وقوله ﷺ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ وَالصَّلَاةِ؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ). أي تحلق الدين كما في بعض الروايات.

والآيات والأحاديث في هذا الشأن أكثر من أن تحصى.

ولا شك أن هذه ميزة متفردة، وفي غاية الأهمية، إذ لا يمكن أن يكون لخُلُق مصدره الإنسان تأثيراً وصدىً على سلوك الناس كالذي يكون مصدره رب العالمين، أو رسوله ﷺ المؤيد بوحيه، وقد سبق أن نقلنا عن ألكسيس كارل قوله في الفارق بين الاثنين: "أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية إلى حد تستحيل معه المقارنة، ولذلك لا يتحمس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق، إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية".

ثانياً- أخلاقٌ مرتبطةٌ بالإيمان: الأخلاق الإسلامية مرتبطة بالإيمان ارتباطاً قوياً وعميقاً؛ بحيث يستحيل الفصل بينهما. والنصوص التي تربط بين الإيمان وحسن الخُلُق كثيرة جداً؛ حتى إنها لتجعل الإيمان، هو نفسه حُسْن الخُلُق، وذلك لأن حُسْن الخُلُق يقتضي أول ما يقتضي شُكر المنْعِم (الإله)، والاعتراف بفضله، والثناء عليه، والوقوف عند حدوده بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. وأما التمرد على أوامره ونواهيه، فهو أعظم العقوق، وأفحش الخُلُق.

- يقول الإمام الغزالي رحمه الله: "حسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخلق هو النفاق، وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه، وهي بجملتها ثمرة حُسْن الخلق، وسوء الخلق، فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حُسْن الخُلُق. قال الله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ... وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ...} (المؤمنون: 1- 5)،

- وقال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً... وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَاهاً ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ...} (الفرقان:63-67)، من أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حُسْن الخُلُق، وفقد جميعها علامة سوء الخُلق، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض، فليشتغل بتحصيل ما فقده، وحفظ ما وجده. وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق، فقال ﷺ: (من كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فلا يُؤْذِ جَارَهُ وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أو لِيَصْمُتْ). وقال: (لَا يُؤْمِنُ أحدكم حتى يُحِبَّ لِأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ).
- ويقول الداعية المعاصر الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: "الإيمان قوة عاصمة عن الدنايا، دافعة إلى المكرمات، ومن ثمَّ فإن الله عندما يدعو عباده إلى خيرٍ، أو يُنفرهم من شرٍ، يجعل ذلك مقتضى الإيمان المستقر في قلوبهم. وما أكثر ما يقول في كتابه: {يا أيها الذين آمنوا} ثم يذكر بعدُ ما يُكلفهم به، مثل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} (التوبة:119)، و{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا} (الأحزاب:70) ...وقد وضح صاحب الرسالة ﷺ أن الإيمانَ القوي، يَلِدُ الخُلُقَ القويَّ حَتْماً، وأن انهيار الأخلاق مَردُّهُ إلى ضَعف الإيمان، أو فُقدانه، بحسب تفاقم الشر أو تفاهته... فالرجلُ الصفيقُ الوجه، المعوجُ السلوك، الذي يقترف الرذائل غير آبهٍ لأحدٍ، يقول رسول الإسلام في وصف حاله: (الحياء والإيمان قرناء جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر) ! والرجل الذي ينكب جيرانه ويرميهم بالسوء، يحكم الدين عليه حكماً قاسياً، فيقول فيه الرسول ﷺ : (والله لَا يُؤْمِنُ والله لَا يُؤْمِنُ والله لَا يُؤْمِنُ) قِيلَ: وَمَنْ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: (الذي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بوائقه)، وتجد الرسول ﷺ عندما يعلم أتباعه الإعراض عن اللغو، ومجانبة الثرثرة يقول: (مَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أو لِيَصْمُتْ). وهكذا يمضي في غرس الفضائل وتعهدها حتى تؤتى ثمارها، معتمداً على صدق الإيمان وكماله".

ثالثاً- أخلاقٌ شاملة: تتنوع الأخلاق الإسلامية وتتسع لتشمل جميع المجالات، **ومن هذه المجالات:**

1- خُلُق مع الله ومع نبيه ﷺ، وذلك بالسمع والطاعة، والتسليم والرضا بما جاء به النبي ﷺ. قال تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} (النور:51).

وكذلك بتعظيم شعائر الله من خلال تعظيم كتابه، وتعظيم أنبيائه، وتعظيم بيوته وحرماته. قال تعالى: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ... ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} (الحج:30-32).

وكذلك بالنصح لله ولكتابه ولرسوله. عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ) قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: (لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ). قال العلماء في بيان معناه: أي أن عماد أمر الدين النصيحة، وتكون لله بتقديم حقه على حق الناس، ولكتابه بتعلُّمه وتعليمه، وتفهم معانيه، والعمل بما فيه، والدفاع عنه، ولرسوله ﷺ بتعظيمه ونصرة دينه، وإحياء سنته بتعلُّمها وتعليمها، والاقتداء به في أقواله وأفعاله، ومحبته ومحبة أتباعه.

2- خُلُق مع أولياء الأمور، ويتمثل في طاعة أوامرهم في المعروف، وبذل النصح لهم. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ} (النساء: 59)، وفي الحديث آنف الذكر: (الدين النَّصِيحَةُ ... لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ). وتعني إعانتهم على ما حُملوا القيام به من المسؤوليات، وتنبيههم عند الغفلة، وجمع الكلمة عليهم، ودفعهم عن الظلم بأحسن أسلوبٍ وألطف عبارة.

3- خُلُق مع عامة المسلمين، وذلك بأن يعامل المسلم أخاه المسلم بالأخوة والإيثار والنصح والمحبة والتعاون والنصرة والولاية. يقول النبي ﷺ: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ ولا يَحْقِرُهُ ... بِحَسْبِ امْرِئٍ من الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ على الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ). وفي الحديث آنف الذكر (الدين النَّصِيحَةُ ... لعامة المسلمينَ)، وتعني الشفقة عليهم، والسعي فيما ينفعهم، وكف الأذى عنهم، وأن يُحب لهم ما يُحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

4ـ **خُلُق مع غير المسلم**، وذلك بأن يتحلى المسلم مع غير المسلم بالعدل والإحسان وحُسْن القول والمعاملة، من ذلك قوله تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (الممتحنة: 8)، وقول النبي ﷺ: (ألا من ظَلَمَ مُعَاهِدًا أو انْتَقَصَهُ أو كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أو أَخَذَ منه شيئا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يوم الْقِيَامَةِ). والمعاهَد هو الذي يعيش في كنف المجتمع المسلم مسالماً.

- ✓ بل إن الله سبحانه حين ذكر صفات الأبرار من عباده، كان فيما أثنى عليهم من صفاتهم أنهم: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} (الإنسان: 8). أي؛ أنهم يقدمون الطعام للأسرى مع حاجتهم إليه، فلَتُقى على حسن التعامل معهم إلى تلك الدرجة العظيمة.

5ـ **خُلُق مع الكبير، وخُلُق مع الصغير**، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: (ليس مِنَّا من لم يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا). وقوله: (ليس منا) يدل على عِظَم وخطورة هذا الخُلُق الذميم. فهو ليس على أخلاق المسلمين، ولا على نهجهم ومسلكهم في الحياة. وإذا لم يكن على أخلاق المسلمين ومسلكهم، فليحذر من عاقبة أمره، والطريق الذي اختاره لنفسه.

خُلُق مع الوالدين، و خُلُق مع الأبناء والبنات، و خُلُق مع الزوج والقرابة، و خُلُق مع الضيف والمعلم والصديق، و خُلُق مع البهائم والجمادات ... وهكذا.

- ❖ يقول الداعية المعاصر الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: "قد تكون لكل دين شعائر خاصة به، تعتبر سمات مميزة له. ولا شك أن في الإسلام طاعات معينة، ألزم بها أتباعه، وتعتبر فيما بينهم أموراً مُقَرَّرةً لا صلة لغيرهم بها، غير أن التعاليم الخُلُقية ليست من هذا القبيل؛ فالمسلمُ مكلَّفٌ أن يلقى أهل الأرض قاطبةً بفضائل لا ترقى إليها شُبهة، فالصدق واجب على المسلم مع المسلم وغيره، والسماحة والوفاء والمروءة والتعاون والكرم ..الخ. وقد أمر القرآن الكريم ألا نتورط مع اليهود أو النصارى في مجادلات تهيج الخصومات ولا تجدي الأديان شيئاً. قال الله تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (العنكبوت:46). واستغرب من أتباع موسى وعيسى أن يشتبكوا مع المسلمين في منازعات من هذا النوع الحاد: {قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ} (البقرة:139). وحَدَثَ أن يهودياً كان له دَيْنٌ على النبي، فجاء يتقاضاه قائلاً: إنكم يا بني عبد المطلب قوم مُطْلٌ ! فرأى عمر بن الخطاب أن يُؤدب هذا المتطاول على مقام الرسول، وهَمَّ بسيفه يبغي قتْله. لكن الرسول ﷺ أسكت عمر قائلاً: (أنا وهو أولى منك بغير هذا، تأمره بحُسن التقاضي، وتأمرني بحُسن الأداء)، وقد أمر الإسلام بالعدل ولو مع فاجرٍ أو كافرٍ. قال ﷺ: (دعوة المظلوم مُستجابة، وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه)، وبهذه النصوص، مَنع الإسلام أبناءه أن يقترفوا أية إساءة نحو مخالفيهم في الدين. ومن آيات حسن الخلق مع أهل الأديان الأخرى ما ورد عن ابن عمر: أنه ذبحت له شاة في أهله؟ فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟. سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه). ويؤكد هذه الحقيقة حديث الرسول ﷺ لقومه وعشيرته، فقد رشحتهم مكانتهم في جزيرة العرب لسيادتها، وتولي مقاليد الحكم بها. ولكن النبي ﷺ أفهمهم ألا دوام لملكهم إلا بالخُلُق وحده. ومن أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة. ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة). إن الخُلُق في منابع الإسلام الأولى من كتاب وسنة هو الدين كله، وهو الدنيا كلها".

فشمول الأخلاق في الإسلام يمتد إلى جوانب الحياة ومكوناتها كلها، ولا يستثني شيئاً.

<u>رابعاًـ أخلاقٌ ثابتةٌ:</u> يعني ثبات الأخلاق في الإسلام أن الفضائل الأساسية للمجتمع من حقٍ وعدلٍ وصدقٍ ووفاءٍ وأمانةٍ وعفةٍ وإيثارٍ مرتبطة بأصول الشريعة ونظامها العام، ومن ثَمَّ فهي لا تتغير ولا تتأثر بتغير الظروف الاجتماعية، أو الأحوال الاقتصادية، أو وجوه المصلحة، مهما تبدلت وتغيرت ظروف الحياة، ومهما تقدم العلم والتقنية. **والسبب في ثباتها أمران:**

الأولى: أن الأخلاق الإسلامية مرتبطة بالفطرة البشرية، والفطرة تعني الخِلْقة، وهي **لا** تتغير و **لا** تتبدل، قال تعالى: {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} (الروم: 30)، وإنما تتغير وتتبدل الممارسات السلوكية المرتبطة بها، فتنحرف نتيجة الظروف والمؤثرات المحيطة بها، كما بينه ﷺ بقوله: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)، وقد نبه الرسول ﷺ في كثير من الأمور التي شرعها لنا إلى ارتباطها بالفطرة السليمة، فقال مرة: (خمسٌ من الفطرة)، وقال مرة أخرى: (عشرٌ من الفطرة). يقول الشيخ السعدي في بيان الصلة بين الخُلُق والفطرةمن خلاله شرحه لحديث خصال الفطرة: "الفِطرة: هي الخِلقة التي خلق الله عباده عليها، وجعلهم مفطورين عليها؛ على محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر ودفعه، وفَطَرهم حنفاء مستعدين، لقبول الخير والإخلاص لله، والتقرب إليه. **وجعل تعالى شرائع الفطرة نوعين:**

الأول: يطهر القلب والروح، وهو الإيمان بالله وتوابعه من خوفه ورجائه، ومحبته والإنابة إليه. قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} (الروم:30) فهذه تزكي النفس، وتطهر القلب وتنميه، وتذهب عنه الآفات الرذيلة، وتحليه بالأخلاق الجميلة، وهي كلها ترجع إلى أصول الإيمان وأعمال القلوب.

الثاني: ما يعود إلى تطهير الظاهر ونظافته، ودفع الأوساخ والأقذار عنه، وهي هذه العشرة، وهي من محاسن الدين الإسلامي؛ إذ هي كلها تنظيف للأعضاء، وتكميل لها، لتتم صحتها وتكون مستعدة لكل ما يراد منها. والنظافة من الإيمان.

- ✓ **والمقصود:** أن الفطرة هي شاملة لجميع الشريعة، باطنها وظاهرها؛ لأنها تنقي الباطن من الأخلاق الرذيلة، وتحلّيه بالأخلاق الجميلة التي ترجع إلى عقائد الإيمان والتوحيد، والإخلاص لله والإنابة إليه، وتنقي الظاهر من الأنجاس والأوساخ وأسبابها. وتطهره الطهارة الحسية والطهارة المعنوية. ولهذا قال ﷺ: (الطهور شَطْر الإيمان)، وقال تعالى: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} (البقرة:222). فالشريعة كلها طهارةٌ وزكاءٌ وتنميةٌ وتكميلٌ، وحثٌّ على معالي الأمور، ونهيٌ عن سفسافها، والله أعلم".

الثانية:أن الأخلاق الإسلامية نابعةٌ من الدين كما أسلفنا من قبل في ذكر الخصائص، وهو سبحانه أعلم بما يصلح أحوال الناس، ويحقق لهم السعادة والخير. قال تعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (الملك:14). والدين بمثابة السياج الذي يحافظ على متطلبات الفطرة، ويعزز وجودها، ويحميها من الانحراف.

- ✓ ويترتب على خاصية الثبات هذه أن الأخلاق مختلفةٌ عن التقاليد؛ لأن التقاليد تتغير بين الفينة والأخرى بتغير مسوغات وجودها، وأما الأخلاق فلا تتغير كما أسلفنا.

خامساً- أخلاق الإسلام تجمع بين الواقعية والمثالية:

- ✓ **فأما كونها واقعيةً**، فلأنها عمليةٌ وقابلةٌ للتطبيق، ولا يستعصي على أحدٍ الإتيان بها.
- ✓ **وأما كونها مثاليةً أيضاً**، فلأنها تستجيب لتطلعات مَنْ نفسه أبيةٌ تتوق إلى معالي الأمور، وتسعى للتحلي بالفضائل والقيم، ولا يرضى أن يكون كعامة الناس، ففسح الشارع له في ذلك.

فالإسلام إذاً راعى في تشريعه الأخلاقي استعداداتِ هؤلاء وهؤلاء، ولم يحملِ الناسَ على ما لا يطيقون، أو على ما يمكن أن تَمَلَّه نفوسُهم، وتتقاصر عنه هِمَمُهم. ومن ثَمَّ نجده شرع العدل بأن يصل كل ذي حق إلى حقه، لكنه في الوقت ذاته حثَّ على الإحسان، المتمثل في الصفح والتجاوز، وهو فوق العدل. قال تعالى في تقرير مبدأ العدل والإحسان معاً: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} (الشُّورى40)، وقال أيضاً: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ

فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} (النحل126). فالشطر الأول من الآيتين يفيد المثلية وهي مقتضى العدل، والشطر الثاني منهما يفيد التجاوز والصفح والصبر، وهو المثالية والإحسان.

ومما يجدر ذكره أن مثالية الأخلاق الإسلامية واقعية، بمعنى أنه يُطيقها معظم الناس.

سادساً- أخلاقٌ وسطٌ: الوسطية سمة الأخلاق الإسلامية، وسمة الأمة المسلمة. قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} (البقرة: 143) أي عدولاً خياراً لا غلو ولا تطرف. وحذرناﷺ في أحاديث كثيرة من الغلو، فقال ﷺ : (هلك المتنطعون) وكررها ثلاثاً، وقال: (إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ). ويتجلى هذا الاعتدال في تلبية الشرع لمختلف حاجات الإنسان ورغباته، مع ضبطها في نفس الوقت بما يحافظ عليها ويبقيها ضمن دائرة النفع والخير.

☒ **فعلى سبيل المثال نجد أن الإسلام يحث على:**

- ✓ **الحكمة**، وهي فضيلةٌ خُلُقية، وتأتي بين رذيلتين، هما الخِبُّ (أي المبالغة في الاتصاف بالمكر والحيلة وسوء الظن) والبَلَهُ (أي المبالغة في السذاجة والسفه). قال تعالى في الثناء على الحكمة: {يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً} (البقرة: 269).
- ✓ **السخاءُ**، وهو خلقٌ كريمٌ ووسطٌ بين رذيلتين هما: الإسراف والتقتير. قال تعالى في الثناء على عباد الرحمن: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} (الفرقان: 67).
- ✓ **الشجاعة**، وهي خلقٌ كريمٌ ووسطٌ بين رذيلتين هما: التهور أو زيادة الإقدام على الأمور المحظورة التي يوجب العقل الإحجام عنها. قال تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} (البقرة:195). والجُبن أو المبالغة في الخوف والحذر بما تأباه الرجولة والمروءة.
- ✓ **العفة**، وهي خلقٌ كريمٌ، وتأتي وسطاً بين رذيلتي الشره (المبالغة في طلب الشهوة واللذات) والخمود (القصور في الشهوة بحيث لا تدفع صاحبها نحو تحصيل أسبابها).
- ✓ **الحياء**، وهو خلقٌ كريمٌ، ويأتي وسطاً بين رذيلتي الوقاحة وصفاقة الوجه من جهة، والخور والمهانة من جهة أخرى.
- ✓ **التواضع**، وهو خلقٌ كريمٌ، ووسطٌ بين رذيلتي الكِبْر من جهة، والذِّلة من جهة أخرى.

❖ **وهكذا فما من صفة أخلاقية جاء بها الإسلام، إلا وهي وسطٌ بين رذيلتين.**

(اختبر نفسك)

❖ اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(1) السبب في ثبات الأخلاق الإسلامية أنها:

(أ) <u>مرتبطة بالفطرة</u> (ب) مرتبطة بالأعراف والتقاليد

(ج) قديمة (د) جميعها صحيح

(2) الحياء خلقٌ كريمٌ، ويأتي وسطاً بين رذيلتين هما :

(أ) الوقاحة وصفاقة الوجه (ب) <u>الوقاحة والمهانة</u>

(ج) الخور والمهانة (د) جميعها صحيح

... انتهت المحاضرة الثالثة ...

المحاضرة الرابعة // وسائل اكتساب الأخلاق

الأخلاق قابلة للتغيير والاكتساب: يدَّعي بعض الناس أن الخُلُق كلَّه فطريٌّ، ومن جنس الخِلْقَة، و لا يقبل تغييراً، وأنَّ مَنْ يطمعُ في تغييره كمَنْ يطمع في تغيير خَلْق الله تعالى!. وربما استدل بعضهم بقولهﷺ: (خَلَق الله الخَلْق، فلما فرغ منه قامت الرحم..) ، بمعنى أن الله خَلَق الخلْق، وفرغ منه، وقُضي الأمر فلم يعد من مجالٍ للتغيير!. وهذا تصورٌ خاطئٌ، واستدلالٌ باطلٌ من وجوه:

أولاً: أن الحديث وارد في الخَلْق، والكلام في الخُلُق، وهما مختلفان.

ثانياً: وردت نصوصٌ كثيرةٌ في الشرع تحث على التحلي بالخُلُق الحسن، وتَعِدُ بالثواب عليه، وتحذر من الخُلُق السيء، وتتوعدُ بالعقاب عليه، كقوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} (الشمس:9- 10)، وقوله ﷺ (وخالِق الناس بخُلُقٍ حَسَن)، وقوله ﷺ: (أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقّاً، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحاً، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ). ولولا أن تغيير الخُلُق إلى الأحسن ممكنٌ، لما حثَّ عليه الشارع.

ثالثاً: إن التغيير في الأخلاق واقعٌ ملموسٌ ومشاهدٌ، لا يُنكره إلا معاند.

رابعاً: لو لم يكن تغيير الخُلُق ممكناً لبطلت فائدة الوعظ والنصح، والأمر والنهي، ولما جاز عقلاً أن يقال للمرء لِمَ فعلتَ؟ ولِمَ تركتَ؟ ولنتج عن ذلك إبطال دور العقل، أو فائدة التدريب "ولأدَّى إلى ترك الناس همجاً مهملين، وإلى ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه، بغير سياسة ولا تعليم، وهذا ظاهر الشناعة جداً".

خامساً: إذا كان التغيير في بعض البهائم ممكناً، كانتقال الفَرَسِ الجامح إلى السلاسة، والكلب والصقر بالتعليم والتدريب إلى أن يصطاد لصاحبه لا لنفسه، فكيف يكون ممتنعاً في الإنسان مع وفور عقله؟.

- ولعل شبهة هؤلاء نابعة من الخلط بين ما هو من قبيل الخِلْقة، فلا يقبل التغيير ،كأصل الغضب والغيظ والشهوة، وما هو من قبيل الخُلُق فيقبل التغيير، وهو السيطرة والتحكم في تلك القوى، وتوجيهها للخير من خلال مجاهدة النفس. يقول أحمد بن قدامة: "ليس المقصود قمع هذه الصفات بالكلية، وإنما المطلوب من الرياضة رد الشهوة إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط، وأما قمعها بالكلية فلا!. كيف والشهوة إنما خلقت لفائدة ضرورية في الجبلة، ولو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، أو شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية، لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه.

☒ويمكن إجمال وسائل اكتساب الأخلاق فيما يأتي:

أولاً- التدريب العملي: لعل أهم الوسائل التي تعين المرء على اكتساب الأخلاق التدريب العملي، وذلك من خلال مجاهدة النفس، وحمْلِها على الأعمال التي يتطلبها الخُلُق المراد اكتسابه، وقد أشرنا قبل قليل إلى أن طباع البهائم تتغير بالتدريب والممارسة وهي لا تعقل، فكيف بالإنسان العاقل؟!. ومن ثَمَّ قال العلماء: إن من أراد أن يُحَصِّلَ لنفسه خُلُق الجود مثلاً، فإن سبيله إلى ذلك تَكَلُّفَ تعاطي فعل الجود -وهو بذل المال- في البدايات، ثم يستمر على ذلك البذل، ويطالب نفسه به، ويُواظب عليه تَكَلُّفاً، مجاهداً نفسه، حتى يُصبِحَ ذلك خُلقاً له، وطبعاً فيه، فيتيسرَ عليه، ويصير به جواداً. ومن أراد أن يُحَصِّلَ لنفسه خُلُقَ التواضع وقد غلب عليه الكِبْرُ، فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدةً مديدةً، يجاهد نفسه فيه، ويتكلفُ إلى أن يصبح ذلك خُلُقاً له وطبعاً فيه، فيتيسر عليه، ويصير به متواضعاً.

ويمكن توضيح ذلك من خلال مثالٍ ملموسٍ من واقع حياتنا، وهو رغبة أحدنا في أن يصبح (خطاطاً)، فإننا جميعاً نحكم بأن سبيله إلى تحقيق هذه الغاية هو أن يتعاطى الخط، ويواظب عليه مدة طويلة، ويقلد الخطاطين في خطهم، ويتشبه بهم

تَكَلُّفاً في البداية، حتى يصير الخطُ الحسَنُ صفةً راسخةً في نفسه، فيصدر منه طبعاً وسجيةً دون تكلف. وكذلك من أراد أن يصبح فقيهاً، فإن سبيله إلى ذلك تعاطي فعل الفقهاء، من كثرة القراءة في كتب الفقه، وتكرار النظر والتأمل فيها، حتى ينعكس منه على قلبه صفة الفقه، فيصير فقيه النفس.

وفي بيان هذا الدور المهم للتدريب العملي ورياضة النفس على الفضائل يقول النبي ﷺ: (مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وما أُعْطِيَ أَحَدٌ عطاءً خَيْراً وأوسَعَ مِنَ الصَّبْرِ). أي أن من دَرَّبَ نفسه وحملها على ما يريد، وجد الاستجابة له بمشيئة الله. فالبداية تكون من العبد، ثم يأتيه التوفيق والمعونة من الله تعالى. مَثَلُه في ذلك مثل البدن. "فكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل ويقوى شيئاً فشيئاً بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تُخْلَقُ ناقصةً، قابلةً للكمال، وإنما تكمل شيئاً فشيئاً بالتربية وتهذيب الأخلاق، والتغذية بالعلم".

ثانياً- الجليس الصالح والبيئة الصالحة: وهذا أيضاً من أهم الوسائل في اكتساب الأخلاق، ومن ثَمَّ جاءت النصوص الشرعية الكثيرة في الحث على حسن اختيار الأصحاب، والحذر كل الحذر من خُلَّان السوء. قال تعالى: {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} (الزخرف 67)، وقال تعالى: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} الفرقان(27- 29). وقال ﷺ: (الْمَرْءُ على دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أحدكم من يُخَالِلُ)، والصاحب ساحبٌ كما يُقال، والطبع يسرق من الطبع الخير والشرَّ معاً. ولقد شبَّه الرسول الله ﷺ مجالسة الصالحين والفاسدين ببائع المسك ونافخ الكير، فقال ﷺ: (مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً). يقول الإمام النووي في تعليقه على الحديث: "في الحديث تمثيله ﷺ الجليس الصالح بحامل المسك، والجليس السوء بنافخ الكير، وفيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومن يغتاب الناس أو يكثر فُجْرُه وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة".

ومما ورد أيضاً في التحذير من أثر البيئة الفاسدة، قول النبي ﷺ: (كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لا، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا؛ فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدْ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَط، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ؛ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ). فقد طالبه الرجلُ العالِمُ بتغيير بيئته الفاسدة. قال النووي: "قال العلماء: في هذا استحبابُ مفارقة التائب المواضعَ التي أصاب بها الذنوب، والأخدانَ المساعدين له على ذلك، ومُقاطعتهم ما داموا على حالهم، وأن يستبدل بهم صُحبة أهلِ الخيرِ والصلاحِ والعلماءِ والمتعبدين الورعين، ومنْ يُقتدى بهم، ويُنْتَفَعُ بصحبتهم".

ولا شك أن البيئة تزداد خطورة وأهمية كلما كانت ألصق بحياة المرء، وتزداد هذه الخطورة على الخصوص في السني الأول من حياة الولد، حيث تكون مرحلة النشأة والتكوين، ويكون القلب كالمرآة الصافية، فتنطبع فيه المشاهد بسهولة ويسر، وتتمكن منه، ومن ثَمَّ جاء التحذير النبوي من الدور السيء الذي يمكن أن يمارسه الأبوان في انحراف ولدهم عن الحق، فقال ﷺ: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ).

ثالثاً- القدوة الصالحة: وهذه أيضاً من الوسائل المهمة في تربية الفرد وتنشئته نشأة صالحة، إذ الإنسان بطبعه يميل إلى تقليد غيره ممن يُعجب بهم، فالصغير يقلد الكبير، والضعيف يقلد القوي، والوضيع يقلد الشريف ... وهذا واقعٌ محسوسٌ لا ينازع فيه أحد. وقد قصَّ الله سبحانه علينا في القرآن الكريم قصص الأنبياء السابقين عليهم السلام، وما عانوه من

أنواع الأذى والشدائد في سبيل دعوتهم إلى الله، فما وهنوا، ولا كَلُّوا، ولا مَلُّوا، ولا يئسوا من نصر الله ورحمته، ثم أمر نبيه محمداً ﷺ أن يقتدي بهم فقال: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} (الأنعام:90).

وكذلك قَصَّ الله علينا كثيراً من جوانب العظمة في شخصية الرسول ﷺ (كتعظيمه لله، ومحبته وإخلاصه له، وخشيته منه، ورأفته ورحمته بالعباد ...)، ثم أمرنا بالاقتداء به، فقال عز شأنه: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الآَخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا} (الأحزاب: 21).

وقال ﷺ: (اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ). أي اقتدوا بهم وأطيعوهم تهتدوا وترشدوا. وفي حديث آخر: (فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ)، أي الزموا طريقتهم وتمسكوا بها فإنهم على الحق المبين.

ولا شك أن مجالات الاقتداء كثيرة ومتنوعة، فهذا قدوةٌ في القوة في الحق، وذاك في الورع، وثالث في السخاء، ورابع في الشجاعة،وخامس في بذل الجاه والسعي في قضاء حاجات الناس.

وإذا ما أردنا أن نغرس الفضائل في أنفسنا أو مجتمعنا، فإن خير وسيلة إليه هي وضع نماذج عملية من سير العظماء بين أيديهم، وذلك لأن:

وجود القدوة الصالحة، والنموذج الطيب، يُعطي الآخرين قناعةً بأن بلوغ هذه الفضائل أمرٌ ممكنٌ، فيندفعُ أكثر إلى التخلق بمثل أخلاقهم.

القدوة الصالحة محل تقدير وإعجاب الناس، وهو ما من شأنه أن يدفع الشخص المحروم من هذا التقدير والإعجاب إلى تقليد القدوة ومحاكاته لعله يصبح يوماً ما مثله، ومع مرور الوقت تتحول هذه المحاكاة إلى خُلُق.

النفس البشرية تتأثر بالأمور العملية أكثر من تأثرها بالأمور النظرية، وإن موقفاً عملياً واحداً ربما يؤثر أكثر من عشر محاضرات نظرية. وإن مما قيل في التأكيد على الأثر البالغ للفعل: "عَمَلُ رجلٍ في ألف رَجُل، أبلغُ من قولِ ألفِ رجلٍ في رجل".

إن أكثر ما يعرفه الناس من سيرة أبي بكر ﷺ، ثباته يوم وفاة النبي ﷺ، وقوله في الناس: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، وموقفه الحازم من المرتدين بعد وفاة النبي ﷺ.

وأكثر ما يعرفه الناس عن عمر ﷺ شدته في الحق، حتى قال فيه النبي ﷺ (إِيهاً يا ابنَ الخَطَّابِ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكاً فَجاً قَطُّ، إِلَّا سَلَكَ فَجاً غَيْرَ فَجِّكَ).

وأكثر ما يعرفه الناس عن عثمان ﷺ بذله وعطاؤه الكبير في سبيل الله كتجهيزه لجيش العسرة، وشرائه لبئر رومة ووقفه على المسلمين.

وأكثر ما يعرفه الناس عن علي ﷺ شجاعته وإقدامه المنقطع النظير، وأن الله فتح خيبر على يديه عندما أعطاه الرسول ﷺ الراية وقال: "لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غداً رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ) فإذا هو عليٌّ ﷺ.

وأكثر ما يعرفُ الناس من سيرة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله امتناعه عن القول بخلق القرآن، وتحمله التعذيب والسجن نصرةً للحق حتى قال فيه علي بن المديني رحمه الله: "إن الله أعزَّ هذا الدين بأبي بكر يوم الردة، وبأحمد بن حنبل يوم المِحْنة".

ومن هنا فإن من واجبنا إبراز النماذجَ الصالحةَ من أسلافنا، وإحياء سِيَر العلماء الربانيين، والزهاد العابدين، والقادة الفاتحين، والمربين الناجحين؛ لتتحرك الهمم نحو التأسي بهم، والسير على نهجهم، والتخلق بأخلاقهم.

رابعاً- الضغط الاجتماعي: ونعني به المجتمع المسلم، بما يشكله من رقابة على سلوك الأفراد، ويُلزمهم بفضائل الأخلاق. وذلك أن الفرد يعيش مع الناس داخل هذا المجتمع أو ذاك. يحتاجهم في شؤون حياته، ولا يستغني عنهم، ويحتاج منهم التقدير والاحترام. فإن أقدم على تصرف غير أخلاقي، وجد من يُحاسبه على سلوكه ذاك، ويُشعره بأن سلوكه غير مقبول، وأن عليه أن لا يعاوده.

ويوماً بعد يوم، ومع هذه الرقابة من المجتمع، والضغط الذي يشكله على السلوك المنحرف، فإن صاحبه سيهجره، وسيبدله بسلوكٍ مقبول، يجلب له الرضا والاحترام والتقدير ممن حوله، وسينتهي الأمر باستقامة خُلُقه.

والضغط الاجتماعي أعم من البيئة الصالحة التي سبق الحديث عنها!.

إذ البيئة تقتصر على أولئك الذين يعايشهم المرء بشكل مباشر، وبصورة مستمرة كبيته ومدرسته وأصدقائه ومحل عمله.

وأما الضغط الاجتماعي فنعني به المجتمع كله، بمختلف طبقاته وأطيافه وفئاته، ومن خلال مختلف وسائل الإعلام من جرائد ومجلات وقنوات وإذاعات وخطب وحوارات، فيكون مسؤولاً أمامها جميعاً بما تُكوِّنه من رأيٍ عامٍ من القرَّاء والمستمعين على امتداد البلاد أو العالم الإسلامي لمحاسبة المنحرف.

وهناك نصوصٌ كثيرةٌ من الكتاب والسنة تؤصل لهذه المسؤولية، منها:

قوله ﷺ: (إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ، فَلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ قَالَ: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ.. فاسقون} (المائدة: 78-81)، ثُمَّ قَالَ: كَلاَّ وَاللَّهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْراً) فالحديث يبين وجوب الاستمرار في إنكار المنكر، واستمرار الضغط على مرتكبه من مختلف أبناء المجتمع حتى يرتدع ويَكُفَّ عن فعله الشائن، وإلا حلَّ بهم ما حلَّ ببني إسرائيل من العقوبة والعياذ بالله.

ومنها قوله ﷺ: (مَثَلُ القَائِمِ في حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَومٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَصَارَ بَعْضُهُمْ أعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَكَانَ الَّذِينَ في أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أنَّا خَرَقْنَا في نَصِيبِنَا خَرْقاً وَلَمْ نُؤذِ مَنْ فَوقَنَا، فَإنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أرَادُوا هَلَكُوا جَميعاً، وَإنْ أخَذُوا عَلَى أيدِيهِمْ نَجَوا وَنَجَوْا جَميعاً). ومعنى القائم في حُدُودِ اللهِ: المدافع عنها. وهو عكس الواقع فيها. فهذا أيضاً يؤكد مبدأ المسؤولية الجماعية، ويشبه أفراد المجتمع بمختلف فئاتهم بالراكبين في سفينة واحدة، يجمعهم مصير واحد، وإذا حلَّ بهم الغرق فلن يستثني أحداً، وسينزل بالجميع، المنحرف لانحرافه، وغيره لسكوته عن الإنكار، كما قال تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} (الأنفال:25).

خامساً- سلطان الدولة: ونعني به السلطة الحاكمة بما تملكه من قوة ردع، وأجهزة رقابة ومحاسبة. فإنها حين تحاسب المنحرف وتعاقبه على تصرفاته غير الأخلاقية تجعله يكف عنها. وفي ذلك يقول الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه : "إن الله لَيَزَعُ بالسلطانِ ما لا يَزَعُ بالقرآن". أي أن بعض الناس قد لا تردعه نداءات كتاب الله، وما فيه من الترغيب والترهيب، لأن الضعف قد استبد بإيمانهم، وأصبحت قلوبهم ميتةً أو قاسية! وهؤلاء إنما يردعهم الرهبة من السلطان، والخوف من العقوبة. ويوماً بعد يومٍ، ومع مرور الزمن، يتحول هذا الامتناع القسري عن فعل المنكر إلى خُلُقٍ لصاحبه.

(اختبر نفسك)

❖ اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(1) قول النبي ﷺ: (مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، ومَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ) يدل على أن من الأخلاق :

(أ) ما يتأتى بالتدريب العملي (ب) ما هو فطري

(ج) ما يتأتى بالقدوة الصالحة (د) ما يتأتى بالبيئة الصالحة

(2) يقول الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه : "إن الله لَيَزَعُ بالسلطانِ ما لا يَزَعُ :

(أ) بالأصحاب (ب) بالقرآن

(ج) بالوالدين (د) بالنصيحة

... انتهت المحاضرة الرابعة ...

المحاضرة الخامسة // الإلزام الخُلُقي والمسؤولية والجزاء

يرتبط الإلزام الخُلُقي، والمسؤولية الخُلُقية، والجزاء الخُلُقي، ببعضها ارتباط العلة بالمعلول. فيكون الإلزامَ أولاً، فتترتب عليه المسؤوليةُ، فيلزم منهما الجزاءُ.

☒ وفيما يلي تعريفٌ موجزٌ بكلٍ منها:

أولاً : الإلزامُ الخلقي:

تعريف الإلزام الخُلُقي: الإلزام في **اللغة**: الفرض والإيجاب. وهذا الإلزام يمكن أن يكون مصدره المكلفُ نفسه بأن يُلزم نفسه شيئاً، أو يكون مصدره الشرعُ بمقتضى خطابه بأمرٍ أو نهيٍ. ويسمى تكليفاً.

وعليه فيمكن **تعريف الإلزام الخُلُقي بأنه**: تكليفٌ بتشريع خُلُقي. أو بعبارة أخرى: تكليفٌ صادرٌ من الشرع بامتثال خُلُقٍ محمودٍ، أو اجتنابِ خُلُقٍ مذموم.

وهذا التكليف أعم من أن يكون جازماً أو غير جازم، وفي جانب الفعل أو الترك. مثال السلوك الخُلُقي المطلوب فعله على سبيل الحتم والإيجاب بر الوالدين. ومثال المطلوب فعله ولكن ليس على سبيل الحتم والإيجاب، إماطة الأذى عن الطريق، وهو المندوب. ومثال المطلوب تركه طلباً جازماً الكِبْر والحسد، وهو الحرام. ومثال المطلوب تركه ولكن ليس على سبيل الحتم أن يشرب الماء في نفس واحدٍ، أو أن يتنفس في الإناء، وهو المكروه.

مصادر الإلزام الخلقي: إن مصدر الإلزام الخُلقي –كغيره من الأحكام الشرعية- إنما هو الله سبحانه، قال تعالى: {إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} (يوسف: 40)، وقال جل جلاله: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} (الأعراف: 54). فالتشريع حقٌ لله وحده، ثم إن الله تعالى أمرنا باتباع نبيه محمد ﷺ، فقال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} (الحشر: 7)، وقال أيضاً: {قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} (آل عمران: 32). فكان اتباعنا لنبينا محمد ﷺ استجابةً وامتثالاً لأمر الله سبحانه.

وأما ما يذهب إليه بعض فلاسفة الأخلاق من غير المسلمين من اعتبار العقل والضمير مصدراً للإلزام الخُلُقي فهو مردود؛ لأن العقل وإنْ كان يُدرك في كثير من الأحيان الحسن والقبح في الأشياء؛ كأن يدرك أن الصِّدْقَ حَسَنٌ، والكذبَ قبيحٌ، والأمانةَ حسنةٌ، والخيانة قبيحةٌ، وكذلك يشعر الضمير بالراحة عند ممارسة كثير من التصرفات الحسنة كالصدق والعدل، ويشعر بالانقباض والألم عند ممارسة التصرفات السيئة كالكذب والظلم؛ إِلَّا أَنَّ مناط الثواب والعقاب هو الشرع، وليس العقل أو الضمير. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فإن العقول والضمائر وإن اتفقت في بعض العناوين العريضة فإنها ستختلف كثيراً في حُكْمها عندما تتجاوز تلك العناوين إلى التفاصيل والتطبيق، فما يراه هذا عدلاً، يراه غيره ظلماً، وما يراه تواضعاً، يراه غيره مذلة ... وهكذا، فكان لابد من مرجع يتم التحاكم إليه عند الاختلاف، ويكون الفيصل في تحديد المفاهيم والضوابط والآثار، فكان هذا المرجعُ والحَكَم هو الشرع.

يُضاف إلى ذلك أن العقول والضمائر بمفردها لن تستطيع الوصول إلى كل شيءٍ، وتُصدِرَ حكمها فيه، ولذلك أمدها الله بنور الوحي ليضيء لها الطريق فتمضي على هدى من الله.

العوامل التي تحمل على الالتزام: هناك جملة من العوامل تحمل المرء على الالتزام، وتعينه عليه، **وهي تنقسم إلى داخلية وخارجية .**

العوامل الداخلية: ويمكن حصرها في أربعة: الإيمان والعقل والفطرة والضمير.

الإيمان: ونعني به الإيمان بالله وبرسالاته وباليوم الآخر، فإن لها أكبر الأثر على الالتزام بالأخلاق الحميدة.

دليل ذلك أن كثيراً من التصرفات السلوكية الحميدة لا يجد المرء لها سبباً ملموساً إلا الطمع بما عند الله سبحانه، كما في مقابلة الإساءة بالإحسان مع القدرة على الرد، والإنفاق على من لا يُنتظر ولا يُتأمّل منه المقابل، وحرمان المرء نفسه من شيء وإيثار غيره مع شدة حاجته إليه، كما قال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً} (الإنسان: 8-9).

يقول ابن القيم رحمه الله: "الإيمان هو روح الأعمال، وهو الباعث عليها، والآمر بأحسنها، والناهي عن أقبحها، وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره ونهيه لصاحبه، وائتمار صاحبه وانتهاؤه". وهذا الأمر مشاهدٌ ملموسٌ لا ينكره إلا مكابرٌ معاندٌ.

العقل: وذلك أن الإنسان إذا رأى أن عاقبة فعله ستكون نافعةً ومفيدةً أَقْدَمَ عليه، وإذا رأى أنها ستكون ضارةً أو أليمةً أحجمَ عنه. فالعقل كثيراً ما يكون وراء الإقدام على السلوك الخُلُقي الحميد، أو الإحجام عن التصرف المشين. يقول الله تعالى مخبراً عن أهل النار وتعطيلهم لعقولهم وبأنه كان سبب استحقاقهم النار: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} (الملك: 10).

يقول ابن القيم رحمه الله: "أما العقل فقد وضع الله سبحانه في العقول والفِطَر استحسان الصدق والعدل والإحسان والبر والعفة والشجاعة، ومكارم الأخلاق، وأداء الأمانات، وصلة الأرحام، ونصيحة الخَلْق، والوفاء بالعهد، وحفظ الجوار، ونصر المظلوم، والإعانة على نوائب الحق، وقِرى الضيف، وحمل الكَلِّ، ونحو ذلك. ووضع في العقول والفِطَر استقباح أضداد ذلك".

الفِطْرة: فقد غرس الله سبحانه في الإنسان الفِطْرة، وجعلها تهفو إلى الإيمان والخُلُق الحميد إذا تركت وشأنها، ولم تتدخل الأطراف الخارجية. فالعفة، والسخاء، والحياء، والصدق، والشجاعة، والحلم، كلها قيم أخلاقية راقية ترتاح لها الفِطَرُ السويةُ، وتأنسُ بها، وتنفر من أضدادها من الخِسَّة، وصفاقة الوجه، والكذب، والجبن، وبذاءة اللسان.

يقول ابن القيم: "والله سبحانه قد أنعم على عباده من جملة إحسانه ونعمه بأمرين هما أصل السعادة، أحدهما: أنْ خَلَقَهم في أصل النشأة على الفِطرة السليمة، فكل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يخرجانه عنها... فإذا تركت النفس وفطرتها لم تُؤْثِرْ على محبة باريها وفاطرها وعبادته وحده شيئاً، ولم تشرك به، ولم تجحد كمال ربوبيته، وكان أحبَّ شيءٍ إليها، وأطوعَ شيءٍ لها، وآثر شيء عندها". يقول الرسول ﷺ: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء). ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: "واقرؤوا إن شئتم: {فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} (الرُّوم:30)".

الضمير: **(أو ما يسمى بالوازع الديني) ويُقصد به** ذلك الشعور الخفي الذي يُحِسُّ به المرءُ في أعماق نفسه، يناديه ويدفعه إلى ممارسة فعلٍ أو الكف عنه. وحين يستجيب لندائه يغمره شعور عارم بالراحة واللذة، بعكس ما لو تجاهله، حيث يشعر بالانقباض والألم النفسي **(أو ما يسمى بوخز الضمير)**، ويلوم ذاته على ذلك التقصير، ولا يريد أن يطلع عليه أحد.

والضمير إنما يتكون في الفرد في أولى سِنِي حياته، من خلال القيم التي تغرس فيه، والثقافة التي ينشأ عليها، والتربية التي يتلقاها، والبيئة المحيطة به، وهنا يأتي دور الدين، ويكون الأساس في نشأة هذا الضمير وصياغته ورعايته. فإذا كان هذا الدور قوياً فاعلاً، جعل من هذا الضمير الخفي، أو الوازع الديني رقيباً على تصرفاته، ودفعه إلى طيب الأفعال والأقوال، ولو لم تكن نصوص الشرع آمرةً بها، وكفته عن الفعل الذي لا يليق، ولو لم تكن نصوص الشرع ناهيةً عنها. ولعل هذا هو المقصود بقول النبي ﷺ(والإِثْمُ ما حَاكَ في صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليه الناس). فالمقصود صدر المسلم الذي تشرب الإيمان، وتربى على قيمه.

العوامل الخارجية: ويمكن حصرها في عاملين رئيسين:

المجتمع: أمر الله سبحانه جماعة المسلمين بمراقبة سلوك الأفراد داخل المجتمع، والأخذ على يد الشارد منهم، المنحرف عن جادة الحق، ومعاقبته إذا ارتكب محظوراً يستدعي العقوبة ليكون زاجراً له ورادعاً لغيره. كما في قوله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ} (المائدة: 38)، وقوله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} (النور:2)، وقول الرسول ﷺ: (من رأى منكم منكراً، فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان).

وعليه فإن الأمة كلها مطالبة بأن تراقب أفعال أبنائها وتصرفاتهم، وتأخذ على يد الظالم والعابث، وإلا نال جميعهم شؤم المعصية وشرها، كما قال تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} (الأنفال25).

السلطة الحاكمة: إن أهم واجبات السلطة الحاكمة (ولي الأمر أو من ينوب عنه) هو حملُ الناسِ على الالتزام بحدود الشرع الحنيف أمراً ونهياً، والتحلي بمكارم الأخلاق، والابتعاد عن الرذائل. وقد عبر عنه الإمام الماوردي رحمه الله بقوله: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا". وحراسة الدين إنما تكون بتطبيق الشريعة، وردع الخارج عليها. وسياسة الدنيا تكون بمنع المنازعات، وقطع الخصومات، وتحقيق العدل بين الرعية، وإيصال الحقوق إلى أصحابها.

ولا شك أن ولي الأمر لن يستطيع تحقيق ذلك بمفرده، بل لا بد أن يعاونه فيه الوزراء والمسؤولون، وهو المعبر عنهم بالسلطة الحاكمة.

خصائص الإلزام الخُلُقي:

يمتاز الإلزام الخلقي في الإسلام بجملة من الخصائص أهمها:

- ✓ أنه إلزامٌ بقدر الاستطاعة. فلا تكليف إلا بما يُطاق. قال تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا} (البقرة:286). وهذا مبدأ يقتضيه العدل الإلهي، كما يقتضيه الخُلُق القويم.
- ✓ أنه إلزامٌ بما فيه يُسر وسهولة على الناس. ومن ثَمَّ فلا تكليف بما فيه حرج أو مشقة لم تعتدها النفوس. قال تعالى: {يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} (البقرة:185). وقال تعالى: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} (الحج: 78).
- ✓ أنه إلزامٌ يراعي الأحوال الاستثنائية، كما في إعفاء ذوي الأعذار من العجزة والضعفاء والمرضى عن الجهاد. قال تعالى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ} (الفتح:17). وكما في الترخص بالتلفظ بالكفر باللسان مع بقاء القلب مطمئناً بالإيمان. قال تعالى: {مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً} (النحل:106).

ثانياً: المسؤولية الخلقية:

تعريف المسؤولية: إذا صدر الإلزام من طرفٍ، نتج عنه بالضرورة مسؤولية الطرف المقابل، وإلا كان عبثاً، ولم يكن إلزاماً.

وقد عُرِّفتْ بأنها: "التزامُ الشخص بما يَصدر عنه قولاً أو عملاً".

أو: تَحملُ الشخصِ النتائجَ المترتبة على ما التزم به من قولٍ أو عملٍ أو تركٍ.

شروط المسؤولية: ليكون الإنسانِ مسؤولاً عن أفعاله وأقواله، لا بد من توافر جملة شروط هي:

البلوغ: وإلا فلو كان صغيراً فلا تكليف ولا مسؤولية عليه، لقصور فهمه عن إدراك معاني خطاب الشرع، يقول النبي ﷺ: (رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ).

العَقْل: وإلا فلو كان مجنوناً فلا تكليف ولا مسؤولية، لأنَّه لا يَعْقِل أمر الشرع ولا نهيه. وقد مرَّ آنفاً حديث: (رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون حتى يفيق).

الاختيار: أي أن يكون نابعاً من إرادته، مختاراً فيه؛ وإلا فلو كان مكرهاً لم يتحمل مسؤولية تصرفه؛ لأنه بذلك يكون قد تحول إلى آلة لتنفيذ الفعل، ولا يُنسب الفعل إليه. قال تعالى: {مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالكُفْرِ صَدْراً} (النحل: 106)، فبين أن الإثم مرفوع عن المكره ولو نطق بكلمة الكفر مادام يجد قلبه مطمئناً بالإيمان، وفي الحديث أيضاً يقول الرسول ﷺ : (إنَّ اللَّهَ وَضَعَ عن أمتي الخطأ والنسيَانَ وما استُكْرِهُوا عليه).

النية: إذ هي مناط المسؤولية عند الله سبحانه، وقبول العمل مرهون بها، وليس بظاهر العمل، يقول النبي ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)، ويقول الله تعالى: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} (البقرة: 225). واللغو كقول: لا والله، بلى والله، لا يريد الحلف حقيقة، بل سبقه إليه لسانه. فمثل هذا لا يؤاخذ على يمينه، وإنما يؤاخذ به من يريده، وقد عزم عليه قلبه.

ومن تصدق على فقير، ونيته السمعة والرياء، لم يكن له عند الله شيء.

العلم بما هو مطلوب منه، وبحكمه الشرعي أهو محرم أم واجب أم مباح.

ولا يشترط العلم حقيقة، بل يكفي إمكانية العلم لتتحقق المسؤولية، بأن تكون فرصة معرفة الحكم متاحة له بالتعلم المباشر أو السؤال، فإن قصَّر ولم يسأل ولم يتعلم، كان مؤاخذاً، ولم يُعذر بجهله.

كون العمل مما يطاق؛ وإلا فلو كان فوق طاقته سقطت مسؤوليته، ولم يحاسب عليه، لقوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} (البقرة: 286).

خصائص المسؤولية:

تتسم المسؤولية في الإسلام بأنها شخصية (أو فردية) بالدرجة الأولى. بمعنى؛ أن الإنسان يتحمل مسؤولية تصرفاته فحسب، دون تصرفات غيره أياً كان، ومهما كانت درجة قرابته. فلو قتل الأب شخصاً كان القصاص عليه دون ولده، وكذلك العكس. ولو شرب الولد خمراً لم يجلد والده عنه، وكذلك العكس. ودليله قول الله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} (المدثر: 38)، وقوله تعالى: {وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى} (الإسراء: 15).

غير أن هناك مستويات أخرى من المسؤولية ملقاة على عاتق المسلم، منها: المسؤولية التقصيرية عن مَنْ هُم تحت ولايته، كالأب في أسرته، ومدير المدرسة في مدرسته، وضابط الجيش في كتيبته، ومدير الشركة في شركته، وولي الأمر فيما تحت ولايته. يقول ﷺ: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته).

ومنها ما يمكننا أن نسميها المسؤولية الاجتماعية –أو التكافلية- وهي مسؤولية كل مكلف في المجتمع عن القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والأخذ على يد المنحرف. يقول ﷺ : (من رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيده فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ).

وتتعدد الجهات التي يمكن لها أن تحاسبنا وأن نكون مسؤولين أمامها، وتتمثل في: المسؤولية أمام الله تعالى، والمسؤولية أمام السلطة الحاكمة، والمسؤولية أمام المجتمع، والمسؤولية أمام نفسه وضميره.

ثالثاً : الجزاء الأخلاقي:

تعريفه: هو المكافأة أو الأثر المترتب على الفعل الأخلاقي. سواءٌ أكان هذا الجزاء ظاهراً كالسجن، أم باطناً كتأنيب الضمير. وسواءٌ أكان في الدنيا، أم في الآخرة.

أنواع الجزاء الأخلاقي:

ذكرنا آنفاً أننا مسؤولين ومحاسبين أمام جهات متعددة، وهي الجهات نفسها التي تكافئ أو تعاقب على السلوك الأخلاقي:

- ✓ **فهناك جزاءٌ رباني في الدنيا أو في الآخرة أو في كليهما.**

ففي حالة الطاعة يكون له من الله سبحانه في الدنيا الرضا والحفظ وتيسير الأمور. قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ} (الطلاق: 2- 3). وفي الآخرة يكون له الجنة والكرامة. قال تعالى: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً} (الكهف: 107).

وفي حالة المعصية والاستمرار عليها يكون له في الدنيا المصائب وضنك العيش. قال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ} (النحل: 112). وقال تعالى: {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا} (طه: 124). وفي الآخرة يكون له النار. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ} (البيّنة:6).

- ✓ **وهناك جزاء من السلطة الحاكمة:**

وتتمثل في مكافآتٍ وتكريم في حال الطاعة، وعقوباتٍ في حال المعصية، في حق من ينتهك محارم الله زجراً لهم وردعاً لهم ولغيرهم ممن تسول له نفسه ارتكاب مثل تلك الانتهاكات، وهي إما حدٌ أو تعزير:

والحدُّ: عقوبة نصَّ عليها الشرع في حق من يقترف جرائم معينة، وهي سبعة: الزنا، والسرقة، والقذف، وشرب الخمر، والرِدَّة، والحِرابة، والقصاص.

والتعزير: عقوبة تأديبية على معصية لا حدَّ فيها ولا كفارة، ترك الشرع سلطة تقديرها للقاضي أو لولي الأمر، وتكون دون الحدِّ.

- ✓ **وهناك جزاءٌ من المجتمع:**

ويتمثل في الثناء العطر، والذكر الطيب، والتكريم في حال الطاعة، والتوبيخ والذم في حال التمرد والمعصية.

- ✓ **وأخيراً هناك جزاءٌ نفسيٌ داخلي يلمسه المسلم من نفسه بالرضا عند الطاعة، والألم عند المعصية، وهو ما يسمى برضا الضمير، أو تأنيبه ووخزه.**

وقد أخبر الرسول ﷺ عن ذلك الشعور واعتبره من علامات الإيمان، فقال: (من سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فذلك الْمُؤْمِنُ). وهذا خاص بالمؤمن.

وأما غير المؤمن فلا يبالي بما فعل. يقول عبد الله بن مسعود ﷺ : "إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عليه، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ على أَنْفِهِ فقال بِهِ هَكَذَا. قال أبو شِهَابٍ بيده فَوْقَ أَنْفِهِ".

(اختبر نفسك)

❖ اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(1) تكليفٌ صادرٌ من الشرع بامتثال خُلُقٍ محمودٍ، أو اجتنابِ خُلُقٍ مذموم :

(أ) الإلزام (ب) الجزاء

(ج) المسؤولية (د) جميعها صحيح

(2) يتكون الضمير في الفرد في أولى سِنِي حياته، من خلال :

(أ) التربية التي يتلقاها (ب) الثقافة التي ينشأ عليها

(ج) البيئة المحيطة به (د) جميعها صحيح

... انتهت المحاضرة الخامسة ...